الفراهيدي
الخليل بن أحمد

بقلم
المستشرق الانكليزي
جون أ. هيوود
ترجمة وتعليق
الدكتور ـ عناد غزوان

هذا هو الفصل الثالث من كتاب (المعجم العربي : نشاته ومكانته في تاريخ الدراسات المعجمية العام) تاليف المستشرق الانكليزي (جون أ. هيوود) ، ليدن ، برل الطبعة الاولى ، سنة ١٩٦٠ .

Arabic Lexicognaphy , its History , and its Place in The General History of Lexicography , by , John A . Haywood , Leiden , E . J . Brill , 1960 .

وصل الى البصرة في سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م / ٨٦٣ م) وراق من خراسان في الشمال الشرقي من بلاد فارس ومعه قاموس للغة العربية ، كان في ثمانية واربعين جزءاً[١] ، وعنوانه « كتاب العين » ينسب الى العالم المشهور الذي مات قبل اكثر من سبعين عاماً . وهذا الرجل هو الخليل بن احمد . اما اسمه الكامل فهو ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (او الفرهودي) الازدي اليحمدي (١٠٠ هـ / ٧١٨ م - ٧١٩ م - ١٧٠ هـ - ١٧٥ هـ / ٧٨٦ - ٧٩١ م) ووصلت الاخبار الى البصرة ان هذا القاموس موجود في خزائن (مكتبة) الطاهريين ، وهم امارة مستقلة تحكم خراسان [٢] ، والوراق (بائع الكتب) الذي جلب معه هذا القاموس كان قد باعه ، كما يبدو ، بخمسين ديناراً[٣] .

ولتقدير الاهمية (الدهشة) التي اوجدتها هذه النسخة (المخطوطة) تجدر بالباحث دراسة سيرة مؤلفها الذي تنسب اليه [٤] . كان الخليل الضوء المتالق لمدرسة البصرة ، كان خبيراً باللغة وشيخ سيبويه في النحو واول من وضع اصول العروض العربي (اول من قنن الاوزان المعقدة في الشعر العربي) ، ولم يكن الخليل عالماً جليلاً وحسب ، بل كان صاحب افكار اصيلة . وكان اسمه اسطورياً في اثناء حياته . فإنه ، في الواقع ، شخصية فريدة وفذة في الدراسات اللغوية بعد ابي الاسود ، وهو اكثر من كونه رائداً في تلك الدراسات . ولد في عمان في شبه الجزيرة العربية من ابوين متواضعين وانتقل الى البصرة في سن مبكرة ، وسرعان ما صار عالماً معروفاً في حقول كثيرة من المعرفة منها : اللغة والنحو ، والشريعة ، والرياضيات ، والموسيقى والشعر . وامتاز بانه صرف جل اهتمامه الى التعليم ولم تدنسه الرغبة الى حب الشهرة وجمع المال . وهو في هذا المجال نسيج وحده بين علماء العربية الذين كانوا بصورة عامة لا يترددون في الحط من شان زميل لهم والحقد عليه تقرباً لامير او تودداً لنبيل . تحدثنا الروايات [٥] عن الخليل انه حين دعاه سليمان بن علي الهاشمي واغراه ببعض المال ورداء وفواكه ، احتفظ الخليل بالفاكهه واعاد البقية الى الامير المكرم ، وبعث اليه (الى الامير) قصيدة ايضاً ، قال فيها ان الغنى الحقيقي يكمن في العقل وليس في المال ، لذلك فهو (اي الخليل) من هذه الناحية غني ولو انه فقير جداً . فالغنى ، كتب الخليل ، غالباً ما يكون صفة الرجال الذين لا يملكون المقومات الاصلية للمعرفة (او العلم) في انفسهم .

تلك هي رغبته الملحة للمعرفة ، اذ انه حين ذهب الى مكة لاداء فريضة الحج ، توسل الى الله ودعاه ان يرزق علماً . لم يسبق اليه احد ، ولا يؤخذ الا عنه ، وبعد عودته من حجه الى البصرة ، فتح عليه بالعروض [٦] . وكان ذلك نتيجة سماعه اصوات مطارق الحدادين (الصفارين) ذات الضربات الايقاعية Rhythmical Beatings وهي تهوي على السندان . وقد اكتشف خمسة عشر وزناً (بحراً) وجاء بعده الاخفش فاسقط منها وزنين بعد ان اضاف اليها وزناً

(بحراً) جديداً . وحين سمعه ابنه ينشد اوزانه (بعض التفعيلات) : « فعولن مفاعيلن » وما شابه ذلك ، انطلق الى الشارع قائلًا للناس : ان اباه قد جن (فقد رشده) ، في الوقت الذي عدت فيه طريقة الخليل (او منهجه) في تقطيع الشعر العربي من الطرائق المعترف بها ، وبقيت تتمتع بمكانتها (العروضية ـ العلمية) الى الوقت الحاضر[٧] . واصبحت (تلك الطريقة الخليلية) ايضاً الاساس في العروض الفارسي والاردي والتركي .

ان مكانة الخليل تتجلى بوضوح من الرواية المشهورة (التي تكررها اكثر مصادر سيرته الذاتية) وتذهب الى انه اجتمع ليلة بطولها مع عبد الله بن المقفع المشهور بترجمة (كليلة ودمنة) يتذاكران (نقاشاً وحديثاً) وافترقا ، وقيل لابن المقفع : كيف رايت الخليل ؟ فقال : « رايت رجلًا عقله اكثر من علمه » . ومن جهة اخرى سئل الخليل عن ابن المقفع ، فقال : « رايت رجلًا علمه اكثر من عقله »[٨] . ولعل اغرب قصة تلك التي رواها الزبيدي وفحواها : ان ملك اليونانية (الامبراطور البيزنطي) كتب الى الخليل كتاباً (رسالة) باليونانية[٩] ، وبعد مضي شهر على تسليمه الرسالة ، حل كل رموزها ـ اي عرف اليونانية ـ (فخلا بالكتاب شهراً حتى فهمه) ، فقيل له كيف استطاع التوصل الى حل رموزها (اي الرسالة) ، قال : « قلت انه لابد له من ان يفتح الكتاب ببسم الله او ما اشبهه ، فبدئت اول حروفه على ذلك فاقتاس لي » . ويذهب الزبيدي الى القول : « فكان هذا الاصل الذي عمل له الخليل كتاب المحمى » ـ اي الالفاظ واللغة الفامضة ـ ولم يشر الى هذا الكتاب (المحمى) اكثر الرواة وكتاب السير والتراجم . ان هذه الرواية بردتها لا تحظى باهتمام بالغ ـ ولو انها من جهة اخرى تلقي ضوءاً على ان الخليل ربما تعلم اليونانية حقاً ، لذلك فربما استطاع ان يعرف بعض الشيء عن المعجم اليوناني . ولكن هذه الرواية قد تصور (او توضح) في اقل تقدير ، تفكيره التحليلي والرياضي الذي قاده الى وضع (نظام التقاليب) او طريقة (تجانس الالفاظ الصوتي Anagrammatical arrangement في (كتاب العين) .

عمل الخليل معلماً للغة في البصرة وتتلمذ له علماء بارزون كثيرون . ولعل اشهرهم سيبويه صاحب (الكتاب) الذي اثر في النحو العربي تاثير (كتاب العين) في اللغة ومن المتعارف عليه بين الباحثين ، ان سيبويه مدين بالشيء الكثير لشيخه او استاذه (الخليل) . وليست بنا حاجة تجعلنا نغالي في التوكيد على وجهة النظر هذه ، اكثر من القول بانه ليس اقل من (٥٢٢) مناسبة (او مرة) من بين (٨٥٨) مناسبة من المناسبات النحوية التي استشهد بها سيبويه من اقوال غيره من العلماء سناد حجته وارائه ، تعود الى الخليل[١٠] .

ان شرود ذهن الخليل وانشغاله بكثير من الامور العقلية كان السبب في موته . اذ بينما كان سادراً (متاملًا) باحدى افكاره في يوم من الايام ، اصطدم بسارية المسجد في البصرة ، فسقط مغشياً عليه ، (كانت الصدمة عنيفة) ، اما بالنسبة لرواية القفطي ، فإن الخليل كان يحاول تقريب نوع من الحساب تمضي به جاريته الى البقال ، فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد وهو محمل فكره في ذلك فصدمته سارية وهو غافل عنها لفكره فانقلب على ظهره فكانت سبب موته ، وقيل انه كان يقطع بحراً من العروض[١١] .

ومن بين كتبه التي يذكرها مؤرخو السير والتراجم ، ما ياتي :

كتاب العروض .

كتاب الشواهد .

كتاب النقط .

كتاب النغم (وهو في الموسيقى) .

كتاب العوامل .

كتاب الجمل (في النحو) .

كتاب الايقاع (في الموسيقى) .

لم يبق من هذه الكتب الا معجم او كتاب العين الذي تحوم بعض الشكوك (حول نسبته الى الخليل) وعلى الرغم من ان الاشارة كثيراً ما ترد اليه في اثار الباحثين او المؤلفين العرب من وقت لاخر ، منذ القرون الوسطى الى عصر السيوطي[١٢] وان كثيراً من واضعي المعجمات واللغويين المتاخرين قد استشهدوا به ، يبدو واضحاً ان « معجم العين » لم يكن من المراجع الاعتيادية لذا لم تبق منه الا نسخ قليلة . ويعود الفضل في اكتشافه في العصر الحديث الى الاب انستاس ماري الكرملي ، الراهب العراقي الذي تخصص بالدراسات اللغوية العربية[١٣] ، ومن بين اختصاصاته الاخرى ، رغبته في دراسة الاصول الثنائية الممكنة Bilitenal Onigin للغة العربية وعلاقتها باللغات الهندية ـ الاوربية (الهندواوربية) . ففي سنة ١٩١١ ، انشا مجلة (لغة العرب) التي كرسها لدراسة اللغة العربية ، وفيها ، في سنة ١٩١٤ اعلن الاب انستاس عن اكتشافه نصاً قديماً مفقوداً من كتاب العين في الكلمات الاتية[١٤] :

« نبشر اليوم ابناء العرب كافة ان الشيخ كاظم افندي الدجيلي وجد نسخة من هذا الكتاب في كربلاء . ونسخة ثانية في الكاظمية وناسخا هاتين النسختين ايرانيان لا يحسنان العربية ولهذا جاءتا مغلوطتين مشوهتين ... ولما راينا هاتين النسختين بتلك الحالة ، استانا غاية الاستياء لعلمنا انه من البعيد ان يطبع مثل هذا الكتاب بتلك الصورة الشنيعة المشوهة ... وبقينا في حيرة حتى ظفرنا بنسخة كتبها عربي عارف باللغة وبالنسخ فحينئذ اطمان قلبنا » .

ومضى الاب انستاس قائلًا بانه سينشر هذا الكتاب وذلك

بالاستعانة بالمخطوطات (النسخ) الثلاث ، وتوقع ان الكتاب سيكون في (٢٥٠٠) صفحة . وبعد ذلك الوقت بقليل ظهر القسم الاول منه في بغداد في (١٤٤) صفحة فقط . ولسوء الحظ فان دخول الانكليز (الحلفاء) الى بغداد في الحرب العالمية الاولى ادى الى ضياع جهود الكرملي وضياع نسخ القسم الاول من كتاب (العين) . وتوجد منه في الوقت الحاضر نسختان ؛ كلتاهما في القاهرة ؛ الاولى بدار الكتب المصرية والثانية في مجمع اللغة العربية . وتوجد نسخة منه في المتحف العراقي نسخت بخط السماوي في سنة ١٩٣٦[١٥] ، والنسخة الاخرى موجودة في مكتبة (جامعة توبنكن ـ Tubingen University) نقلت اليها من برلين ، ويعود تاريخها الى سنة ١٩٢٧ ، وقد نسخت للمستشرق (ريتر ـ Reutter) ، وفي المخطوطة اشارة الى ان ناسخها كان قد نسخها عن مخطوطة في مكتبة علي هبة الدين الشهرستاني ، وزير المعارف الاسبق في العراق . وثمة اختلاف بين هاتين المخطوطتين ، على الرغم من انهما قد كتبتا بوضوح ، كما ان الاختلاف بسيط ايضاً بينهما وبين القسم الذي نشره الكرملي حيث ينفرد هذا القسم الذي نشره الكرملي بانه قد نسب الاشعار التي وردت في المتن (النص) الى قائليها من الشعراء ، ومن المحتمل جداً ان تكون اسماء الشعراء هذه قد اضافها الكرملي نفسه الى النص[١٦] .

لذا فإن « كتاب العين » يبدو قد مر بتاريخ وتفاوت من الناحية الزمنية . فاول ظهوره كان مبطناً بالغموض . فصاحب « الفهرست » يشير بانه لا توجد « رواية » تسنده الى الخليل ولا توجد سلسلة إسناد من العلماء المتعاقبين ممن اكد ان الخليل قد درس هذا الكتاب لواحد من تلاميذه او ذكره لهم . وتجدر الاشارة هنا الى ان المخطوطات الموجودة بين ايدينا من كتاب العين تعود الى هذا القرن (القرن العشرين) . فليس من المستبعد ان يقول العرب انفسهم بحثاً عن مؤلف اخر او في اقل تقدير لمؤلف قد اشترك مع الخليل في تاليف معجم العين ، طالما ان « الرواية الشفهية » هي المصدر المعول عليه في العالم العربي وقتئذ . ولعل الاختيار كان قد وقع على الليث بن نصير بن سيار من اهل خراسان . ويروى انه كان تلميذاً للخليل لفترة قصيرة من الزمن ، حين زار الخليل نفسه خراسان ، وبها الف « معجم العين » . ولا تتعدى الإشارة الى الليث كونه قد اشترك مع الخليل في تاليف العين ـ كما يعتقد ـ ومن ناحية اخرى فهناك ميل الى رفض هذا الاعتقاد . وعلينا ، هنا ان نهتم الاهتمام كله برأي القدماء في هذه المسالة ونعترف بالشك في اقل تقدير . فقد ناقش ابن درستويه (٨٧١م ـ ٩٥٨م) هذهالمسالة بالتفصيل في كتاب فُقد هو الاخر لسوء الحظ . وناقش صديق حسن خان[١٧] هذا الموضوع بإسهاب وحلل عبد الله درويش[١٨] وجهات النظر المختلفة بخصوص هذه القضية ، وانتهى الى ان الخليل هو حقاً مؤلف معجم العين . فهناك وجهات نظر مختلفة ؛ منها : ان الخليل لم يؤلف العين ، بل انه وضع فكرة الكتاب وان الليث الفه ونسبه الى استاذه ، ومنها ان الخليل الف العين بالإشتراك مع مؤلف اخر والرأي الثالث ان الخليل بدأ بتاليف كتاب العين ثم تعهده شخص اخر فاكمله ، بيد ان الراي الاقل شيوعاً هو ان الخليل قد الف الكتاب كله . وهناك رأي اخر مؤداه ان الخليل قد كتب فعلاً القسم الخاص بحرف (العين) ثم كتب الليث ما تبقى من الكتاب (المعجم) على نهج استاذه . وقد سبق لي ان عرضت او اشرت في مكان اخر[١٩] الى ان الخليل ربما كان عازماً على تدوين كل الالفاظ المشتملة على حرف (العين) نظراً لان حرف العين من الحروف النادرة النطق في بلاد فارس والشرق الاقصى ـ ولكن هذا الرأي يبقى مجرد حدس ، وذلك يجعل نظام التقاليب او طريقة التجانس ـ الصوتي ـ Phonetic angrammatic اكثر قبولاً ، بيد انها تحتاج الى مزيد من التوضيح في عرضها . من المؤكد ، اننا نستطيع القول ، من خلال معرفتنا بالخليل ، إن هذا الترتيب الغريب (نظام التقاليب) كان متاصلاً في ذهن الخليل . « فالفهرست » يروي[٢٠] ان الخليل قال لليث : « لو ان انساناً قصد الف حروف الف وياء وتاء وثاء على ما امثله لا ستوعب في ذلك جميع كلام العرب ، فتهيأ له اصل لا يخرج عنه شيء بتة . قال : فقلت له : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وانه ليس يعرف للعرب كلام اكثر منه . قال الليث : فجعلت استفهمه ويصف لي ولا اقف على ما يصف ، فاختلفت اليه في هذا المعنى اياماً ثم اعتل . وحججت ، فمازلت مشفقاً عليه وخشيت ان يموت في علته فيبطل ما كان يشرحه لي ، فرجعت من الحج ، وسرت اليه فإذا هو قد الف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب ، فكان يملي علي ما يحفظ وما شك فيه يقول لي : سل عنه ، فإذا صح فاثبته ، الى ان عملت الكتاب » . ويعتقد ياقوت ان اكثر اجزاء الكتاب (العين) قد اكملها الليث . ويذكر ابن خلكان رأياً غريباً هو ان الخليل كان قد شرع في تصنيف (الكتاب) فقط ، ورتب اوائله ، فاكمله عدد من تلامذته كالنضر بن شميل ، ومؤرج السدوسي ، ونصر بن علي الجهضمي . ويعتقد ان هؤلاء العلماء كانوا قد اخرجوا القسم الذي وضعه استاذهم الخليل منه ، ووضعوا مكانه نسخة معدلة بعض الشيء من تصنيفهم . لذا فإن هذه الرواية (القصة) تفترض ان كتاب العين ليس من صنع الخليل بيد ان فكرة تاليفه او تصنيفه وطريقة ترتيب الفاظه هي للخليل . ان هذه الرواية او القصة لا يمكن ان تؤخذ (او تقبل) بروح الجد ـ فان فكرة تعاون عدد من العلماء العرب في القرن الثامن على تاليف كتاب واحد ، تبدو ، في الغالب ، فكرة فريدة من نوعها ، واذا قدر لواحد من هؤلاء العلماء انه قد ساعد الخليل فعلاً في عمله هذا ، فإننا مضطرون للعودة الى الليث في مثل هذه الحالة . وحقيقة كوننا لا نعرف عن الليث ما فيه الكفاية ، قد تُعد وجهة نظر لا تخلو من الشك ـ او ربما تُعد ضعيفة جداً لدرجة لا يمكن معها قبولها (كحقيقة) .

وفضلاً عن الغموض الذي اكتنف ظهور كتاب العين فإن هناك عدة

عوامل دفعت بالكثير من الباحثين الى التقليل من شأن الخليل في تأليف معجم (العين) . واولها الحسد (العلمي) بين علماء اللغة وواضعي المعجمات المتأخرين . فالأزهري [٢١] يقول ، في مقدمة « تهذيبه » ، إن كتاب العين لا يمكن الاطمئنان اليه ، وان الليث هو المسؤول عن كل ذلك . وعلى الرغم من اقواله هذه ، فإن الازهري كثيراً ما يقتبس من « العين » لتأييد وجهات نظره وإسنادها في مواطن عدة من معجمه ؛ فضلًا عن انه في مقدمته يعترف بفضل الخليل للطريقة التي سينتهجها في « تهذيبه » ويقتبس حرفياً من مقدمة الخليل . ويبدو ان الازهري ميال لإثبات ان معجمه ارقى المعجمات التي سبقته بما في ذلك معجم العين . تلك هي سمعة الخليل او شهرته التي لم يستطع الازهري ان يتهمها بكثرة اللحن والنقص ، لذلك كان لزاماً عليه ان يجد « كبش فداء » لدعواه هذه (الا وهو الليث) . وشبيه بهذا الراي ، بعيداً عن غرور الازهري ، هو ما صرح به الزبيدي في كتابه (مختصر كتاب العين) [٢٢] حيث يقول : « ان الخليل وضع ترتيب الكتاب ونظم ابوابه ثم حشاه من بعد اقوام غير اثبات »[٢٣] . اما بالنسبة للسيوطي [٢٤] ، فينكر ان الزبيدي كان قد ارسل خطاباً (او رسالة) الى صديق عالم سبق ان تذمر من تعصب الزبيدي ضد الخليل قائلًا إنه يحترم الخليل جداً وإنه اوحد عصره ، وانه قام باعمال ممتازة في العروض والموسيقى وكذلك في المعجم واللغة ، بيد ان كتاب العين كان قد احتوى على لحن وخطأ لا يمكن ان يكون قد صدر عن الخليل . لذلك فإنه من الانصاف للخليل ، القول ان الكتاب لا يصح له ولا يثبت عنه ، واكثر الظن فيه ان الخليل سبب اصله وثقف كلام العرب ثم هلك قبل كماله ، فتعاطى اتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه ، فكان ذلك سبب الخلل الواقع فيه والخطأ الموجود فيه . وفي « طبقاته »[٢٥] استطاع الزبيدي ان يكتب خمس صفحات عن الخليل من غير اشارة واحدة الى كتاب العين . ان المبالغة في كثرة اللحن والخلل في كتاب العين ، قد تعود الى دعاية مدرسة الكوفة ضد الخليل ، نظراً لان الخليل يُعد رأس المدرسة البصرية في عصره . وقد يكون هذا الدافع نفسه هو الذي حض على تجريد الخليل من كونه مؤلف كتاب العين .

إن قضية تأليف كتاب العين (والتشكيك بنسبته) قد لا ترسو على رأي نهائي يمكن الإطمئنان اليه ، بيد ان بعض اصحاب وجهات النظر في هذا الموضوع ، ربما يقودوننا الى تكوين رايا فيه . فمن معرفتنا باصالة تفكير الخليل ، علينا الاعتراف بفضله لدرجة كبيرة في طريقة وضعه (تأليفه) لكتاب العين ، في اقل تقدير ، ومن ناحية اخرى فان ما يروى من روايات واساطير مضطربة عن الليث لا يمكن تجاهلها . ومن الجدير ملاحظته ، بهذا الخصوص (تأليف معجم العين) ان العين ـ كما قيل ـ قد وضع (الف) في خراسان ، وهو الاقليم الذي ينتمي اليه الليث . ان هذه المنطقة تشكل نقطة التقاء طبيعية بالثقافة الهندية . ومع ان الخليل هو الرجل الذي اخترع نظام التقاليب (ترتيب التجانس الصوتي) ، فمن المحتمل الاعتقاد بان تكون افكاره في اصول النطق متاثرة بثقافات اخرى . وإذا صح ذلك ، وهو ممكن ، فانها قد استندت الى اصول سنسكريتية . ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة الاعتقاد بان الليث كان حلقة ذلك الاتصال . اما بالنسبة لحصة كل واحد منهما من كتاب العين ـ من حيث التاليف ـ على وجه الدقة ، فثمة بدائل مختلفة يصح الاختيار منها . ولكن من المعقول جداً الاعتقاد بأن الخليل كان قد الف واملى ودرس القسم الاول من كتاب العين كاملًا ، ومن اجل اتمامه فإن الليث قد وجد المنهج (او الطريقة) امامه فاتبعه . واذا تاملنا اكثر من هذا ، فإن مثل ذلك التامل سيكون شيقاً ، بيد انه من ناحية اخرى سيكون قليل الجدوى .

ولا يوجد ثمة ما يستطيع ان يقلل او ينقص من عبقرية الخليل . فإن استيعاب فكرة وضع معجم عربي شامل حتى بمساعدة افكار اخرين من الناس والشعوب ، والابتداء بتاليفه ، لهو انجاز رائع لاي عربي عاش في القرن الثامن الميلادي . وفوق كل ذلك فإنه لا يوجد من ينكر فضل الخليل في تقنين العروض العربي ، على الرغم من ان كتابة في هذا الموضوع ـ العروض ـ غير موجود . ويكفينا القول فقط ان (كتاب العين) يُعد علامة بارزة (متميزة) . ليس في المعجم العربي حسب ، بل وفي تاريخ المعجمات في العالم .

الهوامش

(١) الفهرست ، ص ٦٣ .

(٢) Lane Poole Muhmmadan Dynasteis ,128 .

(٣) ما يساوي تقريباً ٣٣٦ حبة او مثقال من الذهب .

(٤) انظر : درويش ، المعاجم العربية ، ص ١٣ ـ ١٦ ، والزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص ٤٣ وما بعدها ، والقفطي ، إنباه الرواة على انباه النحاة ، جـ ١ ، ص ٣٤١ وما بعدها .

(٥) الزبيدي ، الطبقات ، ص ٤٢ : « وكتب اليه سليمان بن علي الهاشمي يستدعيه الى صحبته ويمث اليه بطرف وكُسَاً ومال وفاكهة ، فقبل الفاكهة وصرف ما سوى ذلك . وكتب اليه :

أبلغ سليمانَ اني عنه في سعةٍ
وفي غنى غيرَ اني لستُ ذا مالِ
سَخَّى بنفسيَ اني لا ارى احداً
يموتُ هزلًا ولا يبقى على حالِ
فالرزقُ عن قدرٍ لا العجزُ ينقصه
ولا يزيدك فيه حولُ محتالِ
والفقرُ في النفس لا في المال تعرفه
ومثلُ ذاك الغنى في النفس لا المالِ
والمالُ يغشى اناساً لا اصول لهم
كما تغشى اصول النابتِ البالي

ـ الدندن : اصول الشجر .

وفي رواية ياقوت (معجم الادباء ، ج ١١ ص ٧٥ ـ ٧٦) : ... ووجه اليه سليمان بن علي والي الاهواز لتاديب ولده ، فاخرج الخليل لرسول سليمان خبزاً يابساً وقال : ما دمت اجده فلا حاجة بي الى سليمان ، فقال الرسول : فما ابلغه عنك ؟ فقال : الابيات ... ابلغ سليمان اني عنه في سعة ... وفي رواية ابن خلكان (وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ١٦) : « .... وكان له راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن ابي صُفرة الازدي ، وكان والي فارس والاهواز ، فكتب اليه يستدعي حضوره ، فكتب الخليل جوابه : الابيات ... ابلغ سليمان اني عنه في سعة » وفي رواية القفطي (انباه الرواة على انباه النحاة ، جـ ١ ، ص ٣٤٤) قال : « وكان الخليل عفيف النفس ، لا يختار صحبة الملوك والامراء . ووجه اليه سليمان بن حبيب المهلب من السند يستزيره ـ وكان له عليه جارٍ (يريد بالجاري ما كان يجريه عليه من رزق) فكتب اليه : الابيات .... ابلغ سليمان اني عنه في نَعَةٍ .... » . (المترجم) .

(٦) ذكر هذه الرواية : ياقوت ، والقفطي ، وابن خلكان .

(٧) انظر : ابراهيم انيس ، موسيقى الشعر ، القاهرة ، د . ت . (١٩٥٩) ، الفصل الثالث ، ص ٤٥ .

(٨) انظر : الزبيدي ، طبقات ، ص ٤٥ . وقد روى هذه القصة الكثيرون منهم القفطي .

(٩) الزبيدي ، طبقات ، ص ٤٧ . يتناول الدكتور مهدي المخزومي في كتابه (الخليل بن احمد الفراهيدي ، اعماله ومنهجه ، ط ٢ ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ٦٨ ـ ٧١) هذا الموضوع بالتحليل الدقيق فيقول : « .... ويظن كثير من الباحثين انه كان ملماً باليونانية او متاثراً بها كل التاثر ، فالبستاني (في دائرة معارف البستاني ، جـ ٧ ، ص ٤٦١) يستظهر انه « كان له المام تام باليونانية » . والاستاذ ماسنيون يرى « ان نفوذ منطق ارسطو على نحو العرب بدأ من عهد الخليل » . وعلي الجارم كان يعتقد ان الخليل تاثر باليونانية كثيراً .

وجميع هذه الاراء كسابقاتها لا تستند الا الى الحدس والتخمين . فلم يتوفر لاصحابها ادلة قاطعة على انه كان يعرف اليونانية ، كما لم يتوفر لهم او لغيرهم ما يدل على ان النحو العربي بوجه عام قد تاثر في نشاته الاولى او في عهد الخليل بالاجرومية اليونانية ، فضلًا عن ان بعض الباحثين من المستشرقين يرى ان النحو العربي اثر من اثار العقل العربي وان العرب قد ابدعوا علم النحو في الابتداء ، وانه لا يوجد في كتاب سيبويه الا ما اخترعه هو والذين تقدموه » .

وما رواه الزبيدي من ان ملك اليونانية كتب الى الخليل كتاباً باليونانية ... واستند البستاني الى ما رواه الزبيدي فاستظهر ان الخليل كان له المام تام باليونانية . ما رواه الزبيدي زعم يحمل بين طياته ، دلائل الوضع والاختلاق ، لانه ان كان يعرف اليونانية فلا معنى لان يعتكف في بيته شهراً حتى يفهمه ويترجمه ، وان لم يعرف اليونانية فكيف يستطيع ان يترجم الكتاب ؟ ولن يستطيع ترجمته ولو بقي في بيته شهوراً .

ثم ما هذا الذي زعم الزبيدي ان الخليل تيقنه من انه لابد ان يفتح الكتاب ببسم الله او ما اشبهه ، وكيف يتوهم الخليل ان الكتاب مبدوء بالبسملة وهو مرسل من نصراني ؟ وهذا هو الذي دفع بعض الادباء الى ان يتكلف فيزعم ان ملك اليونانية امر كاتبه ان يبعث اليه كتاباً عربياً بحروف يونانية ، (انظر ص ٧٣ من قصة عبقري ـ من سلسلة اقرأ) ليتسلى هذا الملك بامتحان الخليل الذي افتخر به العرب على اليونان وغيرهم . ولو عرف الخليل سر هذا الكتاب ، واستنتج ان لغته عربية ، ثم اعتكف في بيته شهراً ليعرف اصوات هذه الحروف من البسملة وغيرها ، فلا دلالة فيه على ان الخليل كان يلم باليونانية المماً تاماً كما استظهره البستاني من رواية الزبيدي .

على ان الخليل لم يكن مغمض العينين عما كان يدور حوله من تيارات اجنبية كانت معروفة في البيئة البصرية ، غير ان هذه التيارات ليست من الوضوح الى حد ان نميز بين موضوعاتها ، وليست الا افكاراً عامة تتناقلها الاذهان ، وتركت ظلالها في النفوس .

وقد ظهرت هذه الظلال في عقول المفكرين الذين سبقوا الخليل كالحسن البصري ومعبد الجهني وغيرهما من اوائل المتكلمين ، فما تقرأ لهم حتى تلاحظ الفرق الواضح بين اقوالهم واقوال الاوائل الذين لم يتاثروا بهذه العقلية الجديدة التي تمخض عنها الاندماج .

والخليل احد هؤلاء الذين نشأوا في هذه البيئة وتاثروا بها ، ولا عجب اذا راينا تفكيره يحمل طابعاً جديداً فيه خطوط حضارية جديدة ، وفيه ظلال من الدقة وعمق النظر ...

ولا يسعنا الاطمئنان الى النغمات التي تعودنا سماعها من الذين يعشقون التكهن على حساب التراث العربي الاسلامي ، ويحاولون تحت ستار من صدق النية وحب البحث ان يرجعوا كل شيء الى اصل اجنبي » . (المترجم) .

(١٠) علي فخري النجدي ، سيبويه ، امام النحاة ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٩٨ .

(١١) القفطي ، انباه الرواة ، جـ ١ ، ص ٣٤٦ .

(١٢) في كتابه (المزهر) ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ في مجلدين .

(١٣) ومن بين دراساته واثاره : نشوء اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٣١ واغلاط اللغويين الاقدمين ، بغداد ، ١٩٣٢ .

(١٤) استشهد بها عبد الله درويش في كتابه (المعاجم العربية) القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٨١ وما بعدها .

(١٥) رقم مخطوطة بغداد ، ٧٧٣ ، ورقم مخطوطة تويدكن ١٦٣٥ . في حين يضع درويش رقم ٥٠٩ لمخطوطة بغداد ورقم ١٦٥٣ لمخطوطة تويدكن . ولكنني ضبطت ارقام هاتين المخطوطتين من (المايكروفلم) الخاص بكل مخطوطة والذي زودتني به المكتبة

(صاحبة المخطوطة) متفضلة بذلك . ان نص او متن مخطوطة تويدكن فيه نقص او خلل كبير .

(١٦) درويش ، المعاجم العربية ، ص ٨٨ . يقول : « ... الا ان هناك شيئاً مهماً وهو ان كثيراً من الابيات غير منسوب الى قائله في نسختي المانيا وبغداد . ولكنه منسوب في نسخة الكرملي ـ فهل يعني هذا ان الكرملي اضاف النسبة من عنده في صلب الكتاب دون التنبيه على ذلك في الهامش ؟ سيظل الجواب القاطع غير معروف حتى نعثر على احدى النسخ التي اعتمد عليها الكرملي . ولكن استاذنا الجليل ابراهيم مصطفى عضو المجمع اللغوي المصري يرجح ان هذه النسبة من وضع الاب انستاس نفسه لان اللغويين الاقدمين لم يكن يعنيهم القائل للابيات بقدر ـ ما يعنيهم صحة الابيات نفسها . ويعزز هذا ان شواهد سيبويه قد ذكرت دون نسبة ثم اضاف الرواة هذه النسبة فيما بعد » . (المترجم) .

(١٧) في كتابه (البلغة في اصول اللغة) اسطنبول ، ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٩ م ، ص ١٥٧ ـ ١٦٢ . ان هذا الكتاب مقدمة ممتازة للمعجم العربي ، على الرغم من انه قديم في منهجه . انظر : (جون . أ . هيوود : الاسهام الهندي في دراسة المعجم العربي ، مجلة الجمعية الاسيوية الملكية في لندن ، عدد تشرين الاول ، سنة ١٩٥٦ ، ص ١٦٥ ـ ١٨٠ . J . A . Haywood , An indian Contribution to The Study of Arabic Lexicography , Jounal of The Royal Asiatic Society , Oct, 1956 , PP . 165 — 180 .

(١٨) عبد الله درويش ، المعاجم العربية ، ص ٤٧ ـ ٦٨ : « لقد كثر الجدل والمناقشة حول كتاب العين خصوصاً من ناحية تاليفه ومؤلفه وانا لنلحظ ان هذا الجدل قد امتد من وراء العصور الى عصرنا الحالي حتى بعد المحاولة الجريئة التي قام بها الاب انستاس الكرملي حين قام بطبع قسم من العين سنة ١٩١٣ . ... وان الخلاف حول هذه المسالة يتلخص في وجهات النظر الاتية :

اولاً ـ الخليل لم يؤلف كتاب العين ولا صلة له به .

ثانياً ـ الخليل لم يضع نص كتاب العين ولكنه صاحب الفكرة في تاليفه .

ثالثاً ـ الخليل لم ينفرد بتاليف كتاب العين ولكن كان لغيره ايضاً عون في ذلك .

رابعاً ـ الخليل عمل من كتاب العين اصوله ورتب ابوابه وصنف مواده ولكن غيره حشا المفردات .

خامساً ـ الخليل عمل كتاب العين بمعنى انه الفه وروي عنه .

(ينتهي الدكتور عبد الله درويش بعد مناقشة هذه الاراء مناقشة مفصلة على وفق ما وردت في مصادرها ورواياتها الى القول) : « ... ونخلص من كل هذا الى ان كتاب العين لا يمكن ان يكون من تاليف غير تاليف الخليل بحيث انه يكون من التجني على الواقع ان نكتب على غلاف الكتاب اسماً غير اسم الخليل او نضع في فهارس المكتبات كتاب العين تحت اسم غير اسم الخليل . وهذا لا يعني مطلقاً ان الليث ليس له يد في الكتاب . ولكن ما ابداه الليث من مجهود لا يغير من تلك الحقيقة كما فطن لذلك الليث نفسه فلم يدع الكتاب لشخصه . ولا يصح ان تحملنا بعض الهنات الصغيرة في الكتاب الى عدم نسبته للخليل . فقد كانت فكرة الترتيب مسيطرة عليه الى حد ان شغلت جميع وقته . ثم هي محاولة تعد الاولى من نوعها فلا بد ان نتوقع بعض التطور فيها فيما بعد ، كما نتوقع بعض التنقيح والتهذيب كذلك » (ص ٧٦ ـ ٧٧) ـ المترجم ـ .

وتوثيقاً لاصالة كتاب العين وصحة نسبته الى الخليل منهجاً ومادة انكر هذا الخلاصة التي توصل اليها محققا (كتاب العين) وهما : الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي في المقدمة (ص ٢٧) . قالا : « بعد الوقوف على اهم نسخ العين الموجودة ومقابلتها بما في التهذيب (للازهري) والبارع (لابي علي القالي) والمقاييس (لاحمد بن فارس) والمحكم (لابن سيدة) ، وبما حكته امات المعجمات هذا وهناك تراثاً نصل الى نقطتين مهمتين :

الاولى ـ ان كتاب العين بتاسيسه وبحشوه ، وببيانه وتفسيره واستشهاده : انما هو كتاب الخليل ، لانه بعلمه وعقله اشبه .

الثانية ـ ان كتاب العين بالرغم مما قيل فيه ، وبما مني به من جحود وتحامل وتشهير ، وبالرغم مما فعل به تقادم الزمن وعبث الوراقين ... كان مصدر الهام اللغويين الذي احتذوه ، ونهجوا نهجه ، بل كان المادة الاساس لمعجماتهم وارائهم في اللغة وفقهها ، وكان نقلة عظيمة نقلت التاليف المعجمي من طور السذاجة الى طور النضج والاكتمال .

واذا كان احمد بن فارس اللغوي والجوهري وغيرهما قد اختطوا لمعجماتهم رسماً جديداً ، وبنوها على اسس جديدة فقد كان ذلك ، بلا ريب ، من تاثير العين وتوجهه » . (كتاب العين ، لابي عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي ١٠٠ ـ ١٧٥ هـ ، تحقيق : الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي ، الجزء الاول ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٨١) (المترجم) .

(١٩) في مقالتي المشار اليها في الهامش (رقم ١٧) وهي : (الاسهام الهندي في دراسة المعجم العربي) .

(٢٠) الفهرست ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢١) انظر : الفصل الخامس من هذا الكتاب وعنوان الفصل (معجمات اخرى على طريقة الخليل في نظام التقاليب من ص ٤١ الى ص ٦٧ .

(٢٢) انظر الفصل الخامس من الكتاب .

(٢٣) درويش ، المعاجم العربية ، ص ٥٣ .

(٢٤) المزهر ، الجزء الاول ، ص ٤٩ وما بعدها .

(٢٥) ص ٤٣ ـ ٤٧ .